

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 16 (2012) : 39 - 46
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

التوليف بين الرحلة والسيرة الذاتية
الأدب المغربي القديم نموذجا

محمد عزلاوي
قسم اللغة العربية وآدابها جامعة زيان عاشور الجلفة

يصعب في بعض الأحيان التمييز بين عناصر الرحلة والسيرة الذاتية، بحيث يمتزجا أحيانا وتتداخل هذه العناصر فيهما، بحيث لا تدري أيها الغالب في القالب الواحد الرحلة أم السيرة الذاتية.

وإن كانت في الحقيقة الرحلة قالب فني والسيرة الذاتية قالب آخر مستقل عنه إلا أن النماذج الكثيرة في التراث العربي عامة والمغربي خاصة تفرض علينا سؤالا: هل يمكن أن يمتزج فنان أدبيان في نموذج واحد، وهل يمكن اعتبار الرحلة سيرة ذاتية والسيرة الذاتية رحلة في آن واحد؟

وقبل مناقشة هذه القضية ينبغي أن نشير بإيجاز إلى مفهوم هذين الفنين وبعض عناصرها:

فالسيرة الذاتية: «هي التي يقوم صاحبها بالكتابة عن نفسه، فهو الذي يروي لنا تاريخ حياته مرحلة مرحلة، بتجرد وصدق، ووعي في ثوب أخاذ»(1).

ويعرفها "إحسان عباس" بقوله: «الترجمة الذاتية هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته، وما جرى له فيها من أحداث تعظم أو تضؤل تبعا لأهميتها»(2).

عرف التراث العربي تراجم ذاتية حاكي في بعضها غيره من الأمم وخاصة التراجم اليونانية والرومانية القديمة «واتسعت المحاكاة فدخل العلماء والمتصوفة ورجال السياسة...»(3)، وظهرت نماذج للسير الذاتية في الأدب العربي ابتداء من القرن الخامس للهجرة وهو ظهور متأخر بالنسبة للتراجم بشكل عام، وكان هذا التأخر لاعتبارات شخصية

ودينية، ومن نماذج السيرة الذاتية في التراث العربي ما جاء في كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ (ت584هـ) وكتاب "النكت العصرية" لعمارة اليمني (عاش خلال ق6هـ) وما كتبه "ابن سينا (ت428هـ) عن نفسه، وفعل كذلك السيوطي، ومن أهل الأندلس والمغرب ممن تحدث عن نفسه وترجم لها بطريقة أو بأخرى نذكر "ابن شُهد" (ت466هـ)(4) في بعض رسائله التي نقلها "ابن بسام" في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، وكذلك "ابن حزم الأندلسي" (ت466هـ) في كتابه طوق الحمامة الذي توفر على كثير من المواقف والتجارب الذاتية غاية في الصدق والصراحة والنصوص كثيرة والنماذج متعددة مما يعدّ في صميم السير الذاتية التي تحدث فيها أصحابها عن حياتهم، وسيرهم، وشيوخهم، ومؤلفاتهم وتجاربهم وتصوراتهم للحياة والكون، نذكر من هؤلاء عبد الواحد المراكشي في كتابه "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" وابن الأحمر في كتابه مستودع العلامة، و"ابن قنفذ القسنطيني" في كتابه أنس الفقير وعز الحقير.

وأما الرحلة فهي من فنون الأدب تخصص وبرع فيه الرحالة المسلمون وخاصة المغاربة منهم، وكانت لهذه الرحلات أغراض كثيرة منها الرحلة إلى بلاد الحجاز لأداء مناسك الحج والرحلة في طلب العلم، وربما للاكتشاف والسياحة وللمغاربة رحلات كثيرة، نذكر منها رحلة "أبي محمد العبدري" ورحلة ابن يعيش، ورحلة الوادي آشي، ورحلة ابن جبير، ورحلة ابن رُشيد، ومن أهم الرحلات، رحلة ابن خلدون ورحلة لسان الدين بن الخطيب.

والحقيقة أن الرحالة يتناولون في رحلاتهم، تلك المراحل التي يقطعونها والمناظر التي يرونها والحوادث التي يتعرضون لها، ولكن إضافة إلى ذلك فهو يتحدثون عن كثير من سلوكاتهم وتجاربهم الشخصية الذاتية مما يجعل هذه الرحلة في كثير من جوانبها تلتقي مع السيرة الشخصية لصاحبها، "فأبو محمد العبدري" صاحب الرحلة المغربية (ت658) الذي تناول في رحلته الحديث عن ذهابه إلى المشرق لأداء فريضة الحج وزيارة البقاع المقدسة، فإن أكثر جوانب هذه الرحلة كرسه لتصوير تجاربه ومشاعره تجاه العلماء الذين تتلمذ على أيديهم وإعجابه بالأعلام الذين خالطهم، والعلوم التي حملها وخاصة مرويات علم الحديث. وكذلك "ابن رشيد السبتي" (ت721هـ) في رحلته المسماة "ملء العيبة، فيما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة" هذه الرحلة إلى الحجاز وإن كان غرضها

الظاهر أداء المناسك إلا أن صاحبها يكاد بقصرها على طلبه للعلم، وتلقيه عن العلماء وذكر الروايات المختلفة، والإجازات التي أخذها عن العلماء وهي كما تقول عنها الباحثة "عواطف محمد يوسف نواب" «وابن رشيد اتبع منهج ابن جبير من حيث وصف المراحل التي في طريقه إلى الحج ولم يلبث أن طغى الجانب العلمي على رحلته حتى أنه يمكن تصنيفها ضمن رحلات البرامج، لما حوته من ذكر العلماء والكتب المتداولة في تلك الفترة»(5).

وهو بذلك يتحدث في هذا الكتاب الكبير عن طلبه للعلم والإجازات وما دار في مجالس العلماء من محاورات ومناظرات شعرية، وغلب على هذه الرحلة عنصر الترجمة الذاتية والحديث عن النفس واصطبغت بالصبغة الشخصية، وكذلك رحلة "ابن بطوطة الطنجي" (ت779هـ) المسماة "تحفة النظار في عجائب الأمصار"، رغم استغراقها في وصف الأسفار، وذكر أعاجيب البلدان ومظاهر الطبيعة ووصف الأحداث، فهي كذلك لا تخلو من جوانب ذاتية، وأحاديث النفس وتجارب شخصية بثها الكاتب في ثنايا الرحلة.

فهي تزخر بالمشاعر الإنسانية المتنوعة بين الرغبة والرهبة والرجاء والخوف والغيظ واليأس والأمل، إضافة إلى حديث الرجل فيها عن أخص الخصوصيات المتعلقة بحياته الشخصية، ولا يسعنا أن نستعرض جميع تلك الجوانب في سيرة ابن بطوطة، فيكفي أن نشير إلى نماذج منها ممثلة تلك المشاعر التي انتابته أثناء خروجه من بلده، متجها إلى تونس في تلك الدموع التي ذرفها الرجل عند خروجه رأفة بوالديه الكريمين الذين تركهما، أو في تذكره لأهله وبلده حينما أدركه العيد بتونس ولم يجد من يسلم عليه، وكذلك حدثنا "ابن بطوطة" عن العلاقات الطيبة التي ربطته مع أشخاص أثناء رحلته، أو الأشخاص الذين اختلف معهم، واتخذ منهم مواقف معينة، إضافة إلى ما عاناه الرجل من إحساس بالاغتراب أو الخوف من قطاع الطرق، أو من السلاطين، ومن المغامرات التي خاضها، والتي كثيرا ما جعلته يشارف على الهلاك، وهو يروي لنا بعض هذه النكبات التي حلت به وهو في بلاد "الهند" حينما أمسك به جماعة من كفار الهنود وهو في إحدى الغابات وأرادوا قتله بعد أن أخذوا منه بعض ملابسه وأغراضه(6).

غير أنه يمكن ملاحظة تداخل السيرة الذاتية والرحلة بصورة قوية وعميقة في رحلتي علمين كبيرين من أعلام القرن الثامن الهجري، وهما "ابن خلدون" و"ابن الخطيب" والرجلان يلتقيان في جوانب كثيرة، فقد ضمهما عصر واحد، وقطر يكاد يكون واحدًا،

ومرت بهما ظروف متشابهة جدا إضافة إلى ما كان يربطهما من علاقات صداقة، وما بينهما من تهادى ومراسلات وكانت تجمع بينهما مشابهات عديدة أدبية ومادية، فقد كان كلاهما أستاذ عصره وقطره في التفكير والكتابة وكان كلاهما شخصية بارزة في حوادث عصره يتصل منها بأوثق صلة ويخوض غمارها .. وكان ابن خلدون يشتغل في دول المغرب نفس المركز الذي يشغله "ابن الخطيب" في الأندلس. [7]

وقد عاش ابن الخطيب بين 713–776ه[8] وكان مولده في "لوشة" انتقل إلى "غرناطة" ومارس الكتابة بعد وفاة والده لدى "ابن الجياب" وزير ابن الأحمر سنة 741 ه ولما توفى "ابن الجياب" (749ه) الت إليه الوزارة حتى خُلِع السلطات محمد الخامس وخرج معه إلى المغرب أيام السلطات المريني أبي سالم ورجع سنة 763ه إلى غرناطة مع سلطانه الذي عاد إلى منصبه وتمضي سنوات ويفر ابن الخطيب الى المغرب بعدما ساءت علاقته بسلطانه بفعل دسائس الخصوم، واتهموه بالزندقة وحوكم محاكمة جائرة في المغرب، وبعد وفاة السلطان عبد العزيز الذي وفر له الحماية، أدخل السجن، ودخل عليه بعض الرعاع فخنقوه، وفي الغد أخرج من قبره وأحرقت جثته وكان ذلك سنة 776ه. [9]

و"ابن الخطيب" قد ترك مؤلفات كثيرة، منها ما وصل إلينا ومنها ما ضاع بسبب إحراقه قبل وفاته وبعدها، ومن أشهر ما ترك لنا، الإحاطة في أخبار غرناطة وأعمال الأعلام واللمحة البدرية، والكتيبة الكامنة وروضة التعريف وغيرها[10]، غير أنه ما يهمنا في موضوعنا هو كتاب ألفهُ في المغرب أثناء نفيه بين 760–763ه وفي الحقيقة كتاب يجمع بين فن الرحلة، والمذكرات الشخصية أي أنه ترجم فيه لنفسه وغطت هذه الترجمة تلك الفترة من حياته التي قضاها بالمغرب، وقدم فيها كثيرا عن المواقف الذاتية والتجارب النفسية التي كان يطغى عليها حب الرجل إلى الزهد والانقطاع للعبادة وترك أحوال السياسة والتفكير في العبور إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، والتفرغ للتأليف والكتابة والكتاب من جهة ثانية رحلة لما تضمنه من وصف ابن الخطيب، لمراحل سيره في أرجاء المغرب، وتنقله بين بلداته وجباله، وسهوله ووصفه لعمرانه وآثاره، وجوانب من طبيعته، فتحدث عن زيارته جيل وقبيلة هنتاتة بالمغرب، وأضرحة الصالحين بها ومروره بعدد من المدن مثل أغمات، ومراكش، وسلا، وأزمور وغيرها، ويذكر محاسن هذه المدن وأهل العلم والفضل والصلاح بها، والكتاب كذلك ضمنه ابن الخطيب ما صدر عنه من قصائد شعرية، ومحاورات مع العلماء وما كتبه من مؤلفات كثيرة منها نفاضة الجراب، مثلى الطريقة في ذم

الوثيقة، ومفاضلة مالقة وسلا، وكناسة الدكان بعد انتقال السكان وبعض الأراجيز في الطب[11]، فالكتاب أذن تتداخل فيه عناصر الرحلة، بعناصر السيرة الذاتية في كونه وصفا للمراحل والمشاهد وتعبير عن جوانب ذاتية شخصية من حياة صاحبه، وصوره عن نفسه الحائرة المضطربة القلقة في تلك الفترة التي كان قد فقد فيها وزارته وفقد زوجته، وصار يحن إلى الحج وترك أعباء والسياسية.

ولا نبتعد كثيرا عن هذا الطرح عند ابن خلدون في كتابه التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا وابن خلدون العلامة المؤرخ، المنظر الأول لعلم الاجتماع عاش بين 732–808هـ عاش حياته متنقلا بين تونس والمغرب والأندلس، والجزائر (تيارت، تلمسان، بسكرة)، ومصر، وبلاد الشام، والحجاز[12]، وهو صاحب الكتاب العظيم، تاريخ العلامة "ابن خلدون"، ومنه المقدمة التي كانت فتحا في فلسفة التاريخ والاجتماع، وكانت سببا في شهرة الرجل شرقا وغربا[13]، قديما وحديثا، وكتاب التعريف بابن خلدون كان جزءا في آخر تاريخه، ثم فصله عنه في كتاب مستقل أثناء حياته، وسماه التعريف بابن خلدون، ورحلته غربا وشرقا والكتاب على تركيزه على الترجمة الذاتية، وكونه قصة حياة فهو كذلك يضمنه أيضا جانبا من رحلاته بين المغرب والمشرق وما تحتويه هذه الرحلات من جوانب هامة في شخصية ابن خلدون، والكتاب كذلك ترجم ذاتية مستقلة لحياته ابتداء بذكر سلفه وأوائل أجداده، ووالديه وشيوخه ووظائفه، ورحلاته، ومؤلفاته، والتجارب القاسية التي عاشها وتدريسه بالمغرب ومصر، وتوليه القضاء بمصر، وما جره له من محن، وسفارته إلى الشام وحواره مع تيمورلنك ومصيبته في أسرته التي ماتت غرقا في عرض البحر حينما أرادت اللحاق به في مصر ثم انعزاله للسياسة وتفرغه للعبادة، والتأليف وزيارة البيت الحرام.

والكتاب أي كتاب التعريف مثل ما قيل عنه هذا الكتاب في حاجة إلى تعريف لكاتب ليس في حاجة إلى تعريف، ينسب إلى أدب الرحلات كما ينسب إلى أدب السيرة الذاتية، لكن ما في من أدب الرحلات أدنى مما فيه من أدب السيرة الذاتية.[14]

وأما عن الرحلات التي تحدث عنها ابن خلدون والتي تشكل جزء معتبرا من مادة الكتاب. كما تشكل جزءا من عنوانه "ورحلته غربا وشرقا" فهي كثيرة تمثلت في حديثه عن تنقله في أول العهد من تونس موطنه الأول إلى قسنطينة، إلى بسكرة، إلى تلمسان إلى فاس إلى الأندلس، إلى بجاية إلى تونس، مرة أخرى إلى مصر، إلى تيهرت، إلى البقاع

المقدسة إلى الشام. وهذه الرحلة لم تحدث في عشية وضحاها، بل هي رحلة حياة عامة بدأت من فترة متقدمة في حياة الرجل واستمرت إلى مشارف شيخوخته، فقد عاش رحالة متنقلا، تارة بمفرده وتارة برفاقه وأخرى صحبة أولاده، وكانت هذه الرحلة في الحياة متعثرة لا يبتسم فيها الحظ له إلا عاد وانقلب عليه، إما بعزل أو بسجن أو نفي أو دفع حاسد له، لذلك تجاذبت حياة الرجل ساعات الغبطة والعزة والجاه العريض من جهة وساعات البؤس والتعاسة والإحساس بالمرارة والاغتراب ومكائد الخصوم، وكان أكثر ما يأتيه الإيذاء من قبل السلاطين، سواء المشايع لهم أو المناوئ لهم، وقد فضل آخر الأمر أن ينقطع للتدريس والتأليف والتعبد بدل العمل في الوظيفة وتبعات السلاطين ولقد عبر عن ذلك بقوله في كتابه التعريف مبرزا جوانب من سيرته وحياته، وهو يستقر بتيهرت ليفرغ لتأليف تاريخه الكبير والمقدمة منه خاصة حينما استقر في قلعة أولاد سلامة، ونزلت بهم في قلعة أولاد سلامة من بني توجين فأقمت بها أربعة أعوام متخليا عن الشواغل كلها وشرعت في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسالت شآبيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتخضت زبدتها وتآلفت نتائجها[15]، وهكذا فإن كتاب التعريف لابن خلدون يبدو كأبرز مثال على تداخل في الرحلة والسيرة الذاتية، هذا التداخل الذي يمكن تمليه طبيعة هذا النوع من الكتابة الذي يحتاج إلى العناصر الفنية في النوعين معا. فهو يُعنى بوصف المراحل والمسيرات، والتنقلات والمتابعة والأسفار، ومن جهة ثانية يتجه إلى الحديث عن النفس وخلجاتها، وآمالها وآلامها، وانتصارها، وانكسارها، يتحدث عن سيره حياة شهرة من طفولة وشباب وشيوخ وانجازات ومؤلفات، ومناصب، ونكبات.

ومن ثمة فلا غرابة من حيث التوليف بين الرحلة والترجمة الذاتية وابن خلدون في سيرته هذه (التعريف بابن خلدون) لا نعرض فقط بمسيرة حياته وأعماله، وتجاربه الخاصة وإنما يعتري هذه السيرة من التفسير والتبرير والتعليل مستفيدا من السياق الاجتماعي والسياسي، الذي كان له الأثر البالغ في توجيه سيرة ابن خلدون وتصرفاته ومواقفه، ويستغرق الكاتب أحيانا في وصف الأحداث التاريخية في كتابة هذا، لكن سرعان ما ينتبه ويفيق معتذرا للقارئ عن خروجه عن سياق الكتاب ووظيفته غير أن ذلك كان ضروريا وهاما لأن تلك الأحداث كانت تبرر ما يصدر عنه من تصرفات وردود أفعال، هي من صميم السيرة الذاتية، ومن أسباب سيرها على ذلك النحو الذي قد لا يبدو مفهوما ومنطقيا أحيانا

دون معرفة الأسباب الخفية الكامنة وراءه.

وبالرجوع إلى أصل هذه الدراسة والتي أردنا من خلالها التدليل على ما في الكتاب من جمع بين فنين مختلفين من فنون النثر الأدبي وهما السير الذاتية وفن الرحلة، فإنه يمكن القول في كتاب التعريف لابن خلدون، ما قاله الأستاذ صالح المغيربي في المقال الذي أشرنا إليه «يلاحظ في العنوان بصيغته الحالية عنصران هما التعريف والرحلة وكل منهما يمثل لونا أدبيا خاصا، له مقوماته ومميزاته وقد جمع المؤلف بينهما في كتاب»[16].

وبهذا نكون قد خلصنا بعد تفحص مجموعة من المؤلفات المغربية والأندلسية إلى تواجد عناصر الرحلة وعناصر السيرة الذاتية في مؤلفات واحدة، كالتي في رحلة العبدري، وابن رشيد، وابن بطوطة، وابن الخطيب، وابن خلدون، وهي نماذج تبدو لي كافية، لإثبات هذه الظاهرة الأدبية، وهذه المحاولة ليست إلا عتبة، يمكن للباحثين والمهتمين بفن الرحلة أو فن السيرة الذاتية أو كليهما، الدخول منها لإثبات هذه الفرضية أو نفيها.

الهوامش:

(1) عبد الرزاق حسين، فن النشر المتجدد، المملكة العربية السعودية، ، دار العلم الثقافية، ط1، 1998م، ص44.

(2) محمد عبد الغني، التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة، ط3، بدون تاريخ، ص23.

(3) شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة، ط3، بدون تاريخ، ص05.

(4) ينظر: محمد عبد الغني، التراجم والسير، ص24.

(5)عواطف، محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، ، مكتبة فهد الوطنية، الرياض،ط1 96، ص52.

(6) رحلة ابن بطوطة، هي الرحلة التي قام بها عبد الله محمد بن عبد الله الملقب بشمس الدين الذي عاش بين 703–779هـ، وسماها تحفة النظار في عجائب الأمصار بأمر من السلطان المريني أبي عنان.

(7) لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، مج1، ص41.

(8) لسان الدين ابن الخطيب، نفاضة الجراب، تح: محمد مختار العبادي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ط1 ص12.

(9) المصدر نفسه، ص04.

(10) لابن الخطيب، مؤلفات كثيرة، تجمع بين العلوم الشرعية والأدب والطب والفلسفة والتصوف، والتاريخ، وهي تزيد عن 60 مصنفا، فيها ما هو مطبوع، وما هو مخطوط وما هو مفقود وكتاب روضة التعريف بالحب الشريف، وهو كتاب في التصوف وحب الرسول، وقد عارض به، ديوان الصبابة لأبي حجلة التلمساني.

(11) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ص42.

(12) عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلة غربا وشرقا، تح: محمد بن تاويت الطنجي، الهبة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2003، ص01.

(13) هذا الكتاب كان في أول الأمر، جزءا من كتاب تاريخ ابن خلدون وهو لا يزال في أخره، غير أن ابن خلدون قد فصل هذا الجزء وسماه التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، وقد كان عنوانه قبل فصله عن تاريخه، التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب.

(14) صالح المغيربي، الترجمة الذاتية وفن الرحلة، حوليات الجامعة التونسية، العدد10، 1973، ص73.

(15) ابن خلدون، المصدر السابق، ص229.

(16) المصدر نفسه، ص229.